

الله عنه يقول الحمام من النعيم الذي أحدثوه. وفي أحد الوجوه من قوله تعالى « ثم لتستلن يومئذ عن النعيم» قال الماء الحار في الشتاء. ولا بأس أن يباشره رجل بالتدليك خلا موضع العورة. وقال مالك رضي الله عنه من دخل الحمام وخرج عريانا فلا شهادة له. وفي السنة الاستعداد في كل أربعين يوما لا يُستحب مجاوزة ذلك. وبعض أهل الطب يستحبون الفسل بماء بارد بعد نومة في الصيف، وأنه نافع للجسد، وأن الحمام عندهم في الصيف أنفع منه في الشتاء. ويكره شرب الماء البارد عند الخروج من الحمام. ولا يحل لمسمة في الحمام أن يليها للخدمة لئلا يفتنهم عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما عن ذلك.

الفصل السادس والأربعون

فيه ذكر حكم المتسبب للمعاش وما يجب على التاجر من شروط العلم

قال الله تعالى « وجعلنا النهار معاشاً » فنكره فيما عدده من آياته ونعمته، وقال عز وجل « وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون»، فجعل المعاش نعمة طالب بالشكر عليها. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهتم بطلب المعاش، وقال صلى الله عليه وسلم أحل ما أكل المرء من كسب يده وكل عمل مبرور. وفي لفظ آخر أحل ما أكل العبد من كسب يد الصانع إذا نصح. وفي الخبر التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء. وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ذات غداة جالسا مع أصحابه فنظروا إلى شاب ذي جلدة وقوة، وقد بكر يسمي، فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله عز وجل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه، ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف، ليغنيهم ويكفيهم، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان. وقال ابن مسعود إنى لأمقت الرجل أراه فارغا لا في عمل دنيا، ولا في عمل آخرة. وقال إبراهيم النخعي رحمه الله كان الصانع بيده أحب إليهم من التاجر، وكان التاجر أحب إليهم من البطالة. وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق، أهو أحب إليك أم المتفرغ للعبادة؟ قال التاجر الصدوق أحب إلي لأنه في جهاد، يأتيه الشيطان من طريق الكيال والميزان، ومن قبل الأخذ

والعطاء فيجاهده. وقد خالفه الحسن البصرى رضى الله عنه في هذا. وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما من موطن يأتيني فيه الموت أحبّ إلىّ من موطن أتسوّق فيه لأهلى، أبيع وأشتري في رحلى. وكان يقول بعض السلف إتجر وبيع واشتر ولو براس المال يجعل لك من البركة ما لا يجعل لصاحب الزرع. وكانوا يعدون الكاسب على عياله كالمجاهد في سبيل الله عز وجل، ويرون فضله على غيره، وروى فيه أثر: إنّ الله عز وجل يحب المؤمن المحترف، وفي خبر آخر: إنّ الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس. وحدثني بعض إخواني عن أبي جعفر الفرغانى قاله كنا يوماً عند الجنيد فجرى ذكر ناس يجلسون في المساجد يتشبهون بالصوفية ، ويقصرون عمّا يجب عليهم من حق الجلوس، ويعيبون من يدخل السوق، فقال الجنيد: كم ممن هو في السوق حكمه أنّ يدخل في المسجد فيأخذ بإذن بعض من هو فيه فيخرجه ويجلس مكانه. إنى لأعرف رجلاً يدخل السوق ويرثه في كل يوم ثمانمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة... قال فسبق وهمى أنه يعنى نفسه.

فإن كان العبد سوقياً فليبدأ فليتعلم علم البيع والشراء، والأخذ والعطاء، ومعاملة الناس في البيوع، ومعرفة أبواب الربا ليعلم ذلك قبل الوقوع فيه فيجتنب ذلك ويتقيه، وليفد إلى المفتى فيسأله عن علم حاله كل يوم من وجه معاملته إن لم يكن قد تقدّم علمه بذلك، ولم يكن عالماً به في وقت المعاملة، فليجعل بكورّه إلى المفتى قبل غدوه إلى السوق، فإن لكل عمل علماً، والله في كل شيء حكم ، فلا يغنيك كبير علم عن علم غيره ، فإن لم تفعل ذلك دخل عليك الربا والبيوع الفاسدة. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف في الأسواق ، ويضرب بعض التجار بالدرة، ويقول لا يبيع في سوقنا إلاّ من تفقه، وإلاّ أكل الربا شاء أو أبى. ثم لينصرف بعد العلم فيما يدخل فيه فيما أبيع له من تجارة أو صناعة، بصدق معاملة وصدق في مبايعة، ناوياً في ذلك إقامة سنّة، وأمرأً بمعروف، ونهياً عن منكر، وجهاداً في سبيل الله، لأن من أخذ الحق وأعطاه وعامل بصدق ونصح فهو معاون على البرّ والتقوى، وفي جهاد العدو والهوى، سيما في زمان يكثر فيه الباطل، لأن صلاح الدين بصلاح الدنيا، وفساده بفسادها، لتعلّق أحدهما بالأخرى، وحاجة كل واحد منهما بصاحبه.

وفي الخبر لا يستقيم عبدٌ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن قوله تعالى «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم،

أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» فقال من هؤلاء من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه وعف فرجه ويطنه. ثم لينو المتصرف في معاشه كف نفسه عن المسئلة، والاستغناء عن الناس، وقطع الطمع فيهم والتشرف إليهم، فذلك عبادة إذا نوى نزعها. ثم ليحتسب السعي على نفسه وأطعمته عياله فهو له صدقة. وعليه الصدق في القول، والنصح في معاملة إخوانه المسلمين لأجل الدين، ويعتقد سلامة الناس منه نصحاً لهم ورحمة بهم، ويعمل في ذلك، ويكون أبدأ مقدماً للدين والتقوى في كل شيء، فإن انتظمت دنياه بعد ذلك حمد الله وكان ذلك ربحاً ورجحاناً، وإن تكدرت لذلك دنياه، وتعدرت لأجل الدين والتقوى أحواله في أمور الدنيا، كان قد أحرز دينه ورحمه، وحفظ رأس ماله من تقواه، وسلم له، فهو المقول عليه والحاصل له، إلا أن من ربح من الدنيا مثل المال وخسر عسر الدين فمارحت تجارته ولا هدى سبيله، وهو عند الله من الخاسرين.

وقد قال بعض العلماء من دخل السوق ليشتري ويبيع فكان درهمه أحب إليه من درهم أخيه، لم ينصح المسلمين في المعاملة. وقال عالم آخر من باع أخاه شيئاً بدرهم وهو يصلح له بخمسة دواينق فإنه لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فينبغي لهذا المتصرف أن يستوي في قلبه درهمه ودرهم أخيه، ورحله ورحل أخيه، ليعدل فيما يبيعه أو يشتري منه سواء بسواء، ويكون مراعيًا لموافقة حكم الله تعالى الذي ورد به الشرع في الشراء، متورعاً في كسبه، مراعيًا أن لا يكون من خيانة، أو سرقة، أو فساد، أو غصب، أو غيلة، أو حيلة، فهذه وجوه الحرام التي تحرم بها المكاسب المباحة، فإذا كان متجنباً لهذه المعاني، لم يشهد أحدها بعينه، أو لم يعلمه من عدل، فكسبه حينئذ من شبهة، ولا يكون مع ذلك حلالاً لإمكان دخول أمر هذه الأسباب فيه، ولأنه على غير يقين منه لصحة أصله وأصل أصله، لقلة المتقين ولهاب الورعين.

وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى له بلبن، فقال من أين لكم هذا، فقيل له من شاة كذا، فقال ومن أين لكم هذه الشاة، فقيل من وضع كذا، فشرب منه، ثم قال إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا ناكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحاً. وقال الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم. فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أصل الشيء، وأصل أصله، ولم يسأل عما وراء ذلك لأنه قد يتعذر ولا يوقف على حقيقته، ولأن أموال التجار والصناع قد اختلطت بأموال الأجناد

ياخذون ذلك بغير استحقاق ، فكأنه من أكل المال بالباطل ، إذ قد أوقفوا نفوسهم وارتبطوا بوابهم في سبيل الهوى ، فصاروا يأخذون العطاء بغير حق ولا يملكون ذلك ، ثم ينتشر ذلك في أموال التجار والصنّاع ، وهم لا يميزون بين ذلك ولا يرغبون عنه ، لقلّة التقوى وعدم الورع ، فلذلك غلب الحرام لأنّ الحلال إنما هو فرع للتقوى والورع ، إذا كثر المتقون وظهر الورعون كثر الحلال وظهر ، وإذا قلّوا فشا الحرام وانتشر ، فصار الحلال مستهلكاً غامضاً في الحرام ، لغربة الورعين وخفية المتقين ، وإنما كان الحلال في القرن الأول موجوداً لوجود السلف الصالح ، وكان الناس ورعين ، وكانوا لا يأخذون ماليس لهم بحق فكانوا متقين ، وكانوا يتركون بعض حقهم خشية دخول الشبهة عليهم ، فمن أجل ذلك كان الحلال كثيراً . وقد حكى عن بعض فقهاء العراق أحرف ، أنه قال لا أقبل شهادة شحيح ، قيل ولم ، قال الشحّ يحمله على استيفاء حقه ، وفي استيفاء حقه أخذ ما ليس له . وفي الخبر كنا نترك سبعين باباً من الحلال مخافة باب واحد من الحرام . وقال الحسن أدركت من مضى ، يُعرض على أحدهم المال الحلال فيقول لا حاجة لي به ، أخاف أن يُفسد على قلبي .

وقد قال الله تعالى « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » ، يعنى وأشباههم وأعوانهم ، فقال الثوري رحمه الله يُقال يوم القيامة ليتمّ ولاية السوء وأعوانهم ، قال فمن ناولهم دواة ، أو برى لهم قلماً ، أو حمّل لهم لبدأ ، أو أعانهم على أمر ، فهو معهم . وجاء رجل إلى ابن المهاربه ، فقال إني خياط ، وربما خطت شيئاً لبعض وكلاء السلطان ، فماذا ترى ؟ أكون من أعوان الظلمة ؟ قال لست من أعوان الظلمة ، بل أنت من الظلمة ، إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الإبر والخيوط . وكان بعض العلماء قد جلس في ديوان بعض الأمراء ، فكتب الأمير كتاباً ، فقال ناولني الطين أختم به الكتاب ، فامتنع ، فقال ناولني الكتاب الذي كتبت حتى أنظر فيه ، فلم يناوله . وقيل مثل ذلك سفيان الثوري مع المهدي ، فكان بيد المهدي نرج أبيض ، وقد أدخل عليه الثوري ، فقال له يا أبا عبد الله ، اعطني الدواة حتى أكتب ، فقال أخبرني بأى شيء تكتب ، فإن كان حقاً أعطيتك ، وإلا كنت عوناً على الظلم . وقد جاء في الخبر من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله عز وجله . وفي الحديث إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق . وفي خبر آخر من أكرم فاسقاً فكاننا أمان على هدم الإسلام .

وليجنب هذا السوقى البيوع الفاسدة مثل بيع الفُرّ والخطر والمجهول ، ومثل بيعتين في

بيعة، أحدهما مصارفة أو مُشارطة، ولا يبيع ما ليس عنده، ولا ما اشتراه حتى يقبضه، ولا يبيع الذين بالفين، ولا يتبايعان الثمار حتى يبدو صلاحها ويؤمن عليها العاهة، ومن النخيل حتى تممر أو تصفر، ومن العنب حتى يلين أو يسود. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجش، وهو أن يُعطى بسلمة شيئاً وهو لا يريد أن يشتريها بشيء لغير غيره بها، ولا يبتاع شيئاً من ذهب وخرز مثل القلادة ونحوها حتى يفصل كل واحد على حديثه، كذلك السنة. ولا يتبايعان ما لم يظهر من الحيوان والثمار. وليتوق كل بيع وشراء أخبر العلم ببطلانه، من دخول رياً فيه، أو خروج من حكم العلم به، فإن ذلك كله منقصة للدين، مخبئة للكسب، فإن أشكل عليه شيء من هذه الأمور لخفائها سأل أهل العلم والفتيا، فيأخذ عنهم على مذهب الورعين ورأى المتقين، وليحتط لدينه ولينظر لنفسه ولا يغمض في أمر آخرته، فذلك خير له وأحسن توفيقاً. وليجتنب الصنائع المحدثّة من غير المعروفة، والمعاش المبتدعة في زماننا هذا، فإن ذلك بدعة ومكروه إذا لم يكن فيما مضى من السلف. وكل ما كان سبباً للمعصية من آلة وأداة فهو معصية، فلا يصنعه ولا يبيعه، فإنه من المعاونة على الإثم والعدوان. وكل ما أخذ من المال على عمل بدعة أو منكر، فهو بدعة ومنكر. وكل معين لمبتدع أو عاص فهو شريكه في بدعته ومعصيته. وأخذ المال على جميع ذلك من أكل المال بالباطل، ومن أكل الحرام فقد قتل نفسه وقتل أخاه لأنه أطعمه إياه. قال الله تعالى « ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل»، وقال تعالى « ولا تظنوا أنفسكم» وليس هذا من سبيل المؤمنين، وقد قال الله تعالى « ويتبع غير سبيل المؤمنين تولى ما تولي وتصله جهنم» .

ولا ينبغي للسوقى أن يشغله معاش الدنيا عن الآخرة، ولا تقطعه تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة، ولا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، لأنه من الموقنين. ويوت الله عز وجل في الأرض هي أسواق للآخرة، قال الله عز وجل « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة»، وقال الله عز وجل « في بيوت أولئك الله أن تُرفَع وَيُذَكَّرَ فيها اسمه، يُسَبَّحُ له فيها بِالْعُدُوقِ وَالْأَصْصَالِ رِجَالاً»، فيجعل العبد طرفي النهار لخدمة سيده، يذكره ويسبّحه في بيته بحسن معاملته. وقد كان عمر رضى الله عنه يأمر التجار فيقول اجعلوا أول نهاركم لله عز وجل، وماسوى ذلك لنفوسكم. وفي أخبار السلف كانوا يجعلون أول النهار للآخرة، وآخره للدنيا. وقال بعض العارفين الناس ثلاثة، رجل شغله معاده عن معاشه فتلك درجة الفائزين، ورجل شغله معاشه لعماده فتلك درجة الناجين، ورجل شغله

معاشه عن معاده فهو حال الهالكين. وكان ابن عمر رضى الله عنه إذا دخل السوق يقول: اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفسوق، ومن شر ما أحاطت به السوق. اللهم إني أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة. ولنكر الله عز وجل في السوق ما لا يجد في سواه، فيمتد ذكر الله تعالى في ساعات الغفلة وحين تزاحم الناس في البيع والشراء ولا تفعدن في السوق لغير لكر الله أو غير معاشي فقد كره ذلك. وإذا سمعت التأخين للصلاة فتأخذ في أمر الصلاة ولا تؤخرها عن الجماعة، وإلا كان فاسقاً عند بعض العلماء، إلا أن يكون في الوقت سعة، أو يكون نائياً للصلاة في جماعة أخرى، في مسجد آخر، فإدراكه لتكبيرة الإحرام في الجماعة أحب إليه من جميع ما يربح من الدنيا إلى أن يموت، وفوتها أشد عليه من جميع ما يخسر من الدنيا. وقد كان السلف من أهل الأسواق إذا سمعوا الأذان ابتدروا المساجد يركعون إلى وقت الإقامة، وكانت الأسواق تخلو من التجاره، وكان في أوقات الصلاة معاشي للصيبان وأهل الذمة، وكانوا يستاجرونهم يحفظون الحوانيت إلى أوان انصرافهم من المساجد. وهذه سنه قد عفت من عمل بها فقد نعتها. وجاء في تفسير قوله عز وجل «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة»، قيل كانوا حدادين وخرّازين، وكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الأشقي فسمع الأذان لم يخرج الأشقي من الفرزة، ولم يرفع المطرقة ورمى بها، وقاموا إلى الصلاة. وروينا عن مالك رضى الله في رجل باع بعد النداء يوم الجمعة هل يفسخ ذلك البيع؟ قيل عامل ترك القيام إليها وهو حرّ، قال يستغفر ربه، أو قال ظلم وأساء. وقال مالك يحرم البيع حتى يخرج الإمام يوم الجمعة.

وليجنب الصانع عمل الزخرف وما يكون فيه من لهو وزينة من التصاوير والنقوش، وتخريم العاج، ودقائق النقوش من العاج، وتشبيد الجص، والتزويق بالأصباغ المشهية، فإن عمل ذلك مكروه، وأخذ الأجرة عليه شبهة. وقد كان بعض السلف يقول تخيروا لأولادكم الصنائع. وروى عن حذيفة أن الله عز وجل خلق كل صانع وصنعتة. وقد كانوا يكرهون بيع الطعام وبيع الدقيق. وقد روى في كراهة بيعها حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي الخبر أن الله عز وجل يحب العبد العائق في صنعتة. وفي خبر آخر أن الله عز وجل إذا عمل عبده عملاً أحب أن يحكمه. وفي لفظ آخر أن يتقنه. وأوصى بعض العارفين رجلاً فقال لا تسلم ولدك في بيعتين ولا في صنعتين، بيع الطعام وبيع الأكفان، فإنما يتمنى الفلاء، ويتمنى موت الناس، والصنعتان أن يكون جزواً، فإنها صنعة تقسى القلب، أو صواباً

فإنه يُزخرف الدنيا بالفضة والذهب. وروى عن ابن سيرين أنه كره الدلالة وكره أجر الدلال. وقد كانوا يستحبون التجارة في البرّ، وروى في خبر آخر لو اتجر أهل الجنة لا تجروا في البرّ، ولو اتجر أهل النار لا تجروا في الصرّف. وقد كره الحسن وابن سيرين رضى الله عنهما التجارة في الصرّف، وسئل الحسن عن الصيرفي فقال الفاسق، لا تستظن بظه، ولا تصلّين خلفه. وقد كانت هذه الصنائع العشر أعمال الأخيار والأبرار: الخرز، والحمل، والخياطة، والحذو، والقصارة، وعمل الخفاف، وعمل الحديد، وعمل المغازل، وصيد البرّ والبحر، والوراقة. وحدثونا عن عهد الوهاب الورّاق قال قال لى أحمد بن حنبل ماصنعتك، فقلت ورّاق، فقال كسبك طيب وصنعتك طيبة، ولو كنت صانعاً شيئاً بيدي صنعت صنعتك. وكان مالك بن دينار ورّاقاً، وكان السلف يستطيعون كسبه ويفضّلونه. وكل عمل يُتقرب به إلى الله عز وجل ويكون من أعمال الآخرة ومن البرّ المعروف فاحذّ الأجر مكروه عليه، مثل تعليم القرآن، وتعليم العلم، أو مجالس النكر والصلاة بالناس في رمضان، وغسل الموتى، وما كان في هذا المعنى، لأن هذه تجارات الآخرة فلا يؤخذ أجرها إلا من الآخرة، ومن أخذها من الدنيا فقد خسر خسراتنا مبيّنا، إذ ربح المحتسبون فيها وأخذوا أجورهم التي صبروا عليها في دار الدنيا. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى العاص واتخذ مؤذنا، لا تأخذ على الأذان أجراً.

ويجتنب التاجر الاحتكار لما يؤكل ويُقتات من القطينة وغيرها، وأشد ذلك الحنطة التي هي قوت الكافة، فقد روى في كراهة الاحتكار والتشديد فيه أخبار كثيرة. روى هذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من احتكر طعام المسلمين فليس منا. وفي خبر آخر من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدّق به لم تكن صدقة بل كفارة لاحتكاره. وقيل من احتكر أربعين يوماً فكانما قتل نفساً. وفي خبر آخر ألقاه الله عز وجل في معظم جهنم. وعن عليّ رضى الله عنه من احتكر الطعام أربعين يوماً قسا قلبه. وعنه أنه أحرق طعاماً محتكراً بالنار. وروى عنه في فضل الاحتكار من جلب طعاماً فباعه بسعر يومه فكانما تصدّق به، وفي لفظ آخر فكانما اعتق رقبه. ومن العلماء من كان يجعل الاحتكار في كل مأكول من الحبوب والإدام، مثل العدس والباقلا والسمن والعسل والشيرج والجبن والتمر والزيت. وكره احتكار جميع ذلك، وروى نحو هذا عن ابن عباس في قوله عزّ جلّ «ومن يُرد فيه بإلحادٍ بظلم نُذِّقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ»، قيل إن الاحتكار من الظلم.

وحدثونا عن بعض السلف أنه كان بواسطة فَبَهِرَ سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله بَعَ هذا الطعام في يوم تدخل البصرة فلا تؤخره إلى غد، قال فوافق السعر فيه سبعة، قال له التجار إن آخرته جُمعة ربحتَ فيه أضعافاً، فأخّره جمعة فربح فيه أمثاله، وكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام يا هذا قد كُنّا قنعنا أن نربح الثلث مع سلامة ديننا، وإنك قد خالفت أمرنا وقد جنيتَ علينا جناية، فإذا أتاك كتابي فخذ المال كله فتصدق به على فقراء أهل البصرة، وليتني أنجو من الاحتكار كفافاً لا على ولا لى!

ثم ليق البائع مدح السلعة وتنفيها من خَرَفَ الكلام، وليحذر المشتري نَمها وعيبتها بما ليس فيها للخداع. وأما الإيمان على ذلك فهو معصية وممحنة للكسب، وقد كان السلف يشدون في ذلك. قال أبو لور كنا نتحدث أن من نَفَرَ لا ينظر الله إليهم التاجر الفاجر، وكنا نعدّ من الفجور أن يمدح السلعة بما ليس فيها. قال يونس بن عبيد وكان خزّاناً فجاهه رجل يطلب ثوب خز، فأمر غلامه أن يخرج رزمة الخز، فلما فتحها قال الغلام أسأل الله الجنة، فقال شدّ الرزمة، ولم يبع منها شياً خشية أن يكون قد مدح. ويقال إنه كانت عنده حلة على ضربين أثمان، ضرب منها أربعمئة كل حلة، وأثمان الأخر مائتان، فذهب إلى الصلاة وخلف ابن أخيه ليبيع، فجاهه أعرابي يطلب حلةً بأربعمئة، فعرض عليه من حلة المائتين، فاستحسنها ورضيها، فاشترها منه ومشى بها وهي على يده ينظر إليها خارجاً من السوق، فاستقبله يونس بن عبيد خارجاً من المسجد فعرف حلته، فقال بكم أخذت هذه الحلة، فقال بأربعمئة، فقال لا تَسَوَى، إنما قيمتها مائتان، فقال ياذا الرجل إن هذه تساوى ببلدنا خمسمئة درهم، فقال له يونس إنّ النصح في الدين خيرٌ من الدنيا كلها، ثم أخذ بيده فركه إلى ابن أخيه، فجعل يخاصمه ويقول أما اتقيت الله، أما استحييت أن تبيع مثل الثمن وتترك النصح لعامة المسلمين، فقال والله ما أخذه إلاّ عن تراض، فقال وإنّ رضى إلا رضى له ما رضيت لنفسك؟ ثم ردّ على الأعرابي مائتي درهم.

وقد سئل بعض العلماء عن الورع في المبايعة، فقال لا يصح الورع في البيع إلاّ بحقيقة النصح، قال وكيف ذلك؟ قال إذا بعته شيئاً بدرهم نظرت، فإن صلح لك أن تشتريه بدرهم فقد نصحت في البيع، وإن كان يصلح لك بخمسة دواينق وقد بعته بدرهم فإنك إن لم ترض له ما ترضى لنفسك فقد ذهب النصح، قال فإذا عَدِمَ النصح ذهب الورع.

ويقال إن البائع يوقف يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وقفاً ، ويحاسب عن كل واحد محاسباً ، حتى عدّد من عامله ومن اشترى منه في الدنيا. فإن كان البائع ذا ميزان فليرجح في الوزن إذا باع وأعطاه، ولينقص نفسه إذا أخذ، سيماً إذا كان ذا ميزانين ، كان الأمر عليه أشد. وكان بعضهم يقول ألا اشترى الويل من الله بحبة، فكان إذا أخذ نقص نفسه بحبة، وإذا أعطى زاد غيره حبة، لقوله عز وجل «ويل للمطففين»، يعنى الذين رضوا بالتطفيف بالحبة والحبتين ، فباعوا بذلك جنه عرضها السموات والأرض، لجهلهم بأمر الله تعالى وقلة يقينهم بالآخرة. ويقال إن هذه المظالم لا تردّ أبداً ولا تصح التوبة منها لتعدّر معرفة أصحابها. وقال بعض أهل السلف عجباً للتاجر والبائع كيف ينجو، يزن ويحلف بالنهار وينام بالليل. وقال سليمان عليه السلام كما تدخل الحية بين الحجرين كذلك تدخل الخبيثة بين المتبايعين. ولا ينبغي للمشتري أن يسأل البائع الرجحان لأن الله عز وجل قال «واقموا الوزن بالقسط» أى بالعدل وهو السواء، وهو استواء اللسان في البكرة، لا مائلاً إلى إحدى الكفتين.

ومكروه المعاملة بالمزيفة، ولا يصلح درهم تكون الفضة فيه مجهولة أو مستهلكة، ولا بما لا تُعرف قيمته وما يختلط بالفضة من غيرها فلا تمتاز منه، فقد كان بعض السلف يشدد في ذلك ويحرّمه، منهم الثوري والفضيل بن عياض وهب بن الورد وابن المبارك ويشر بن العارث والمعافى بن عمران رضى الله عنهم. وقد كان بعض علمائنا يقول إنفاق درهم مزيف أشد من سرقة مائة درهم، قال لأن سرقة مائة درهم معصية واحدة منقضية، وإنفاق دائق مزيف بدعة أحدثها في الدين ، وإظهار سنة سيئة يُعمل بها بعده، وإفساد مال المسلمين، فيكون عليه وزره إلى مائة سنة فأكثر ما بقى ذلك الدرهم يدور في أيدي المسلمين، ويكون عليه إثم ما أفسد ونقص من أموال المسلمين إلى آخر فئاته وانقراضه، فطوبى لمن إذا مات مات ذنوبه معه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه بعده مائة سنة ومائتى سنة، يُعذب بها في قبره، ويستل عنها إلى آخر انقراضها. قال الله عز وجل «ونكتب ما قدموا وآثارهم» ، ما قدموا ما عملوا، وآثارهم ما ستّوه بعدهم فعَمِلَ به. وقال في وصفه نبيّاً الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر، قيل بما قدّم من عمل وما أخّر من سنّة عمِلَ بها بعده. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنّ سنة سيئة فعَمِلَ بها بعده كان عليه وزرها ومثّل وزر من عمِلَ بها، لا يُنقص من أوزارهم شيئاً... وإنفاق الدرهم الرديء على من يعرف النقد أشد وأغلظ، وهو على

من لا يعرف أسهل فيكون به أعذر، لأن هذا لا يعتمد الفش والآخر يعتمد ويقصده، فإنما كان المسلمون يتعلمون جودة النقد لأجل إخوانهم المسلمين لئلا يفشواهم بالردى، والآ فإن تعلم النقد بلاء وإثم على صاحبه لأنه علم علمه ولم يعمل به، فهو يستل عن علمه. ومن ردت عليه قطعة فلينفقها ولا يجوزها على بيع آخر، ويحتسب بذلك الثواب من الله عز وجل، فله بذلك من الأجر بوزن كل ليرة منها حسنة. فينبغي للتاجر أن يكثُر من الصدقة ليكون فيها كفارة خطاياها وإيمانه وكذبه، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم التاجر بالصدقة لذلك، فينبغي للتاجر والصانع أن يكونا مستعملين لهذه الخصال، فإنها جامعة له تشتمل على جمل أعمال البر، ليأخذوا أنفسهم بها، فإنها من أخلاق المؤمنين وطرائق المتقدمين، وقد نذبوا إلى جميعها، منها أن يسمع إذا باع ويسمع إذا اشتري، ويحسن إذا قضى ويحسن إذا اقتضى، وليمش الرجل بدين غريمه إليه ولا يوجهه إلى اقتضائه فيشق عليه، وليصبر صاحب الدين على أخيه، ويعسن تقاضيه، ويحسن له النظرة، ويؤخر حقه إلى مسيرته، وليقتنم دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم على ذلك، فينافسوا في مدحه لمن فعل ذلك، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إسمع يسمع لك، وقال خير الناس أحسنهم قضاءً، وقال خذ حقت في عفاف، وأفياً كان أو غير واف، يحاسبك الله حساباً يسيراً. وقال رحم الله عبداً سمح البيع سمح الشراء، حسن القضاء حسن الاقتضاء. وقال من مشى إلى غريمه بحقه أظله الملائكة. وقال من أنظر معسراً أو ترك له، حاسبه الله حساباً يسيراً، وفي خبر آخر أظله الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله. وفي خبر آخر من أقرض ديناً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله، فإذا حلَّ الأجل فانظره بعده، فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة. وفي حديث من أدان ديناً وهو ينوى قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه. وكان جماعة من السلف يدانون وهم واجدون لأجل هذا الخبر، وكان جماعة لا يحبون أن يقضيهم غراموم دينهم لأجل ذلك الخبر الأول، إذ له بكل يوم تأخر قضاء صدقة. وفي الحديث رأيت على باب الجنة مكتوباً الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بشمانية عشر، قيل معناه لأن الصدقة تقع في يد محتاج وغيره، والقرض لا يقع إلا في يد محتاج مضطر إليه. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أدان ديناً إلى أجل فجاءه صاحب الدين عند حلول الأجل، ولم يتفق عند النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل الرجل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم ويشدد عليه في الكلام، فهم به أصحابه، فقال دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً.

وأستحبُّ أن تكون أكثر معاونة الإنسان بين البائعين مع المشتري منهم، وأستحب أيضاً أن يكون عونه بين المتدائنين مع الذى له الدين، إلا أن يعتدى من له الدين أو يعتدى المشتري، فيكون حينئذ على المشتري. ويسير المغابنة فى التجارات جائز، فإن موضوع التجارة على الغبن إذا كان عن تراهن، فإذا تفاوتت القيمة وعلم الغبن فمكروه. وقد يروى فى حديث إن غبن المستفعل حرام. وفى حديث فيه مقال المغبون لا محمود ولا مأجور. وهذا والله أعلم إذا تغابن وهو يعلم فيفسر حقه ويحمل غيره على ظلمه. وكان الزبير بن عدى يقول أدركت ثمانية عشر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم رجل يحسن يشتري لعمراً بدرهم. وقد روى أن الحسن باع بغلاً له بأربعمائة درهم، فلما استوجب المال قال له المشتري إسمح يا أبا سعيد، قال قد أسقطت عنك مائة، قال له المشتري فأحسن يا أبا سعيد، قال قد وهبت له مائة أخرى، فنقص من حقه مائتى درهم. وفى رواية أخرى قال أحسن قال وهبت لك مائتى درهم، فقيل له يا أبا سعيد هذا نصف الثمن، فقال هكذا يكون الإحسان والآ فلا.

وقد كان الحسن والحسين رضى الله عنهما وغيرهما من خيار السلف يستقصون فى الاشتراء ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال، فقيل لبعضهم تستقصى فى شرائك على اليسير، ثم تهب الكثير ولا تبالى، فقال قائلهم إن الواهب يعطى فضله، وإن المغبون يغبى عقله. وقال آخر إنما أغبى عقلى ويصيرتى، أو قال معرفتى، ولا أمكن الغابن من ذلك، وإذا وهبت فإنما أعطى لله عز وجل فلا استكثر له شيئاً. والأخبار فى هذه المعانى تكثر، والفضائل فيها تطول، ولم نقصد جمع ذلك فقد ذكرنا جملة، وهذا كله داخل فى البر والتقوى، ومن العدل والإحسان، ومن تطوع الخير وفعل المعروف، فقد أمر الله بذلك فى مواضع من كتابه.

وينبغى أن يستعمل النصح فى البيع والشراء وفى الصنعة، ويستوى عملهما فى البيع والمشتري والمصنوع، ويفطن كل واحد منهما صاحبه بعيب إن كان فى السلعة، وينقص إن كان فى الصنعة، إن لم يفطن المشتري لذلك والمستعمل ليتكافأ العلمان، ويثنى كل واحد منهما على صاحبه بإحسان. وفى الخبر البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما فى بيعهما، وإذا كذبا وكتما أنزعت بيعهما. وفى حديث آخر يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا، فإذا تخاونا رفع يده عنهما. ولما بايع النبي صلى الله عليه وسلم جريراً على الإسلام ذهب لينصرف، فجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم، قال فكان جرير إذا أقام السلعة

ليبيعها بصّر عيوبها، ثم أخبر فقال إن شئت فخذ وإن شئت فاترك، فقلنا له رحمك الله إنك إذا قلت هذا لم ينفذ لك بيع، فقال إنما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصيحة لأهل الإسلام. وكان وائلة بن الأسقع واقفا بالناس في الكوفة فباع رجل ناقة بثلاثمائة درهم، وغفل وائلة وقد ذهب الرجل بالناقة، فسمى وراءه وجعل يصوت به حتى رجع، وقال يا هذا اللحم اشتريت هذه الناقة أم للظهر؟ فقال بل للظهر. فقال فإن بحقها نقواً قد رأيت، وإنها لا تتابع السير عليه، قال فرئنا فنقصه البائع مائة درهم، فقال لوائلة رحمك الله أفسدت البيعة، فقال إننا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل لأحد يبيع شيئاً إلا يبين ما فيه، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا يبينه. فانظر رحمك الله إلى النصح للمسلمين الذي يتعذر فعله على كثير من المسلمين، إنما جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من شرط صحة الإسلام وكان يبايع عليه، إلا أنه جعله من فضائل الدين. ولا نهاية لقرب المتقين لأنه قال الدين النصيحة، الدين النصيحة ثلاثاً، ثم سوى بين طبقات الناس فيه، فقال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعماصهم.

وقد روى في خبر مشهور لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفة دنياهم على آخرتهم، وفي خبر آخر ما يبالوا ما نقص من دنياهم بسلامة دينهم. فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله، قال الله سبحانه كذبتم لستم بها صادقين، وفي لفظ آخر ردت إليهم.

وفي خبر كئنه مفسر لحديث مجمل: من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، قيل وما إخلاصها، قال أن تُحرزه عما يحرم الله. وخبر مشهور ما آمن بالقرآن من استحل محارمه. والفش في البيوع والصنائع محرم على المسلمين. ومن كثر ذلك منه فهو فاسق. ومن الفش أن ينشر على المشتري أجود الطرفين من مبيع، أو يظهر من المبيع أجود الثوبين، أو يكشف من الصنعة أحسن الوجهين. وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يبيع طعاماً فأعجبه ظاهره، فأدخل يده فرأى بللاً فقال ما هذا، فقال أصابه السماء، فقال هلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس. من غش فليس مني.

وحدثني بعض إخواننا أن رجلاً حدثاً سأل فكيف أسلم في بيع النعال؟ فقال استجد الأول وليكونا سواء، واجعل الوجهين شيئاً واحداً لا يفضل اليمين وجود الحشو، وقارب بين الخرز، ولا تطبق أحد النعلين على الأخرى. فينبغي للبائع والصانع أن يظهر من البيع والمصنوع رداً ما فيه وأرذله، ليقف المشتري والصانع على عيوبه، ويكونا على بصيرة من باطنه، ويبين

دقائق الإعلام والبيان في ذلك مما لا يعلمه المشتري أو المستعمل، فهو من النصح والصدق، وذلك يكون عن التقوى والورع في البياعات والإجازات، ويكون الكسب عن ذلك أحلّ وأطيب. فليجتنب المسلم محرّم ذلك كله، وكلّ مكروه، فهذه سيرة السلف وطريقة صالحى الخلف.

وأستحبُّ له أن يتوخى في الشراء والبيع، ويتحرّى أهل التقوى والدين، ويسأل عمّن يريد أن يبايعه ويشاريه. وأكره له معاملة من لا يرغب عن الحرام أو من الغالب على ماله الشبهات. وحَدَّثنا عن بعض الشيوخ عن شيخ له من الخلف الصالح، قال أتى على الناس زمان كان الرجل يأتى إلى مشيخة الأسواق فيقول من ترون لى أن أعامل من الناس من أهل الصدق والوفاء، فيقال له عامل من شئت، ثم أتى عليهم وقت آخر فكان الرجل يقول من ترون لى أن أعامل من الناس، فيقال عامل من شئت إلا فلاناً وفلاناً، قال ونحن في زمن إذا قيل لنا من نعامل من الناس فيقال عامل فلان بن فلان، وأخشى أن يأتى على الناس زمان يذهب فلان بن فلان أيضاً.

وينبغى أن لا يحلف ولا يكذب ولا يخلف موعداً فإنّ اليمين الكاذبة ممحقة للكسب. وقد قيل ويلٌ للتاجر من يقول لا والله، ويلى والله، ويلٌ للصانع من اليوم وغد ويعد غد. وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، عبدٌ متكبر، ومثانٌ بعهيته، ومنفقٌ سلعته بيمينه. وينبغى أن لا يمدح إذا باع أو صنع صنعةً، ولا يذم إذا اشترى أو استعمل صنعةً، فإنّ هذا لا يزيد في رزقه ولا ينقص منه تركه، وهذا من اليقين في الرزق في هذا الباب، وفعله يزيد في الذنوب فينقص من الدين.

وعلى الصانع أن يبلغ غاية النصح في صنعته لمستعمله، لأنه أعرف بصلاح صنعته وفسادها، ويسرعة فناء الصنعة وكثرة بقائها، فينبغى أن يتقن نهاية علم الصانع بصلاح الصنعة وحسن بقائها مع نهاية بغية مستعمله من تجويدها وإحكامها، ويتقى من فساد يسرع إلى فنائها ما لا يظن له مستعمله، فإذا فعل الصانع والتاجر ذلك كانا قد عملا بعملهما وسلما من المطالبة والمساءلة عنه، وإلا فهما يُستلان، فيقال لهما ماذا عملتم فيما علمتم إذ كانوا على علم من التجارة والصناعة. وبهذه الأشياء عمارة الملكة فلا بد أن يُستلأ عن ذلك، كما يُستل من كان على علم من الدين والإيمان، لأن لهم في علوم العقل والتمييز من أبواب الدنيا أحوالاً أيضاً ومقامات من حيث كان عليهم في ذلك تكليف وعبادات. ويقال إذا أثنى

على الرجل جيرانه في الحَضْر، وأصحابه في السفر، ومعاملوه في الأسواق، فلا تشكّوا في صلاحه. وشهد رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشهادة فقال أثنى بمن يعرفك، فاتاه رجل فآثنى عليه خيراً، فقال له عمر رضى الله عنه أنت جاره الأدنى الذى تعرف مدخله ومخرجه؟ قال لا، قال فكنت رفيقه في السفر، الذى يُستدلّ به على مكارم الأخلاق؟ قال لا، قال فعاملت بالدينار والدرهم الذى يتبين به ودع الرجل؟ قال لا، قال أظنك رأيت قائماً فى المسجد يُصلى بخفض رأسه طوراً ويرفعه؟ قال نعم، قال انهب فليست تعرفه، أو قال أنت القائل ما لا تعلم.

وقد كان من سيرة السوقة فيما سلف أنه كان للبائع دفتران للحساب، أحدهما ترجمته مجهول، فيه أسماء من لا يعرفه من الفقراء الضعفاء، وذلك أن المسكين والضعيف كان يرى الماكول فيشتهيه، أو يحتاج إليه ولا يمكنه أن يشتريه، فيقول للبائع احتاج إلى خمسة أرطال من هذا أو عشرة وليس عندي ثمنه، فيقول خذ إلى ميسرة، فإذا رُزِقَ فاقض، ويكتب اسمه فى الدفتر المجهول. قال ولم يكن من يفعل هذا من خيار المسلمين، بل كان الخير من الباعة من لا يكتب اسمه فى دفتره ولا يجعله ديناً حتماً عليه ولا مظلمة عنده، ولكن يقول خذ حاجتك مما تريد، فإن وجدت فاقض، وإن لم تجد فانت فى حلٍّ لا تضيقن قلبك لذلك. وهذا طريق قد مات، فمن قام به فقد أحياه. فكان مثل هؤلاء فى المتقدمين أكثر من أن يسعهم كتاب، وكان من ينصح نقائق النصح وشدّد على نفسه غاية التشديد وسمح لإخوانه نهاية الجود أكثر من ذلك. وإنما ذكرنا هؤلاء لتنبية الغافلين على أعمالهم ونكشف بعض ماعفا من طريقهم. ولم يكن هؤلاء المنكوبون من السوقة من خيار الناس كلهم، إنما كان الأخيار المسجدية العبّاد والنسّاك المنقطعون إلى الله الزهاد. فإذا حصلت كفاية السوقى فى بعض يومه فليجعل بقيته لأخيه، فقد كان بعض السلف منهم من ينصرف من حانوته بعد صلاة الظهر ويجعل نصف يومه لربه، ومنهم من ينصرف بعد العصر فيكون آخر يومه لأخوته. وكان بعضهم إذا حصلت كفايته فى يومه وتأتى قوت عياله فى أى وقت من نهاره غلق حانوته وانصرف إلى منزله أو مسجده يتعبّد بقية يومه. وكان منهم من إذا ربح دانقاً أو قيراطاً انصرف قناعةً وزهداً وقلة حرص على الدنيا. وقد كان كثير من الصناع يعمل نصف يومه، وتلثى يومه، ثم يأخذ ما استحقه من كفايته وينصرف إلى مسجده. ومنهم من كان يعمل فى الأسبوع يوماً أو يومين ويتعبّد سائر الأسبوع فى خدمة سيده. وقد كانوا يجعلون أول النهار وآخره للأخرة فى تجارة

المعاد والمرجع، ويجعلون وسط النهار لتجارة الدنيا. وفي الخبر أن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد من أول النهار ومن آخره فيها خَيْرٌ وَنُكْرٌ، كفر الله عز وجل عنه ما بينهما من سوء العمل. وقد كان على رضى الله عنه يمر في سوق الكوفة ومعه الدرّة وهو يقول يا معشر التجار، خذوا الحق واعطوا الحق تسلموا، ولا ترتوا قليل الربح فتحرموا أكثر، وما منع من حق إلا ذهب أضعافه في باطل. وقيل لعبد الرحمن بن عوف ما كان سبب يسارك، فقال ثلاث: مارددت ربحاً قط، ولا طلب منى حيوان وأخرت بيعه، ولا بعث بنسأ. وقد كان الوريون يكرهون ركوب البحر للتجارة، ويقال من ركب البحر للتجارة فقد استقصى في طلب الرزق. وفي الخبر لا يركب البحر إلا حاج أو غازي أو معتمر. وكان عمر رضى الله يقول ابتاعوا بأموال اليتامى لا تاكلها الزكاة، وثمرها لهم بالأرباح. فإذا كان المتسبب في المعاش والمتصرف في الأسواق على هذه الأوصاف المحمودة، وبهذه الشروط الموصوفة، قائماً بحكم حاله، حافظاً لمقامه، فإنه في سبيل من سبيل الله عز وجل، وأفعاله وآثاره حسنة وكل ما تسبب به إلى الآخرة، وكان عوناً له عليها وطريقاً إليها فهو من الآخرة، وإذا خالف هذه الشروط، ولم يستعمل العلم في أحواله، وفارق التقوى في تصرفه، أو كان يسعى تكاثراً وحرصاً على الدنيا، جزوعاً على ما فاتته من الدنيا، مستقلاً ما في يديه منها، لا يبالي ما ذهب من دينه إذا سلمت دنياه، ولا يبالي من أين اكتسب وفيما أنفق، فهذا يتقلب في المعاصي والمكاره ظهراً لبطن، متعرضاً للمقت من الله عز وجل، غير مستعد للموت، ولا موقن بالصواب، أفعاله وآثاره سيئات. وترك التجارة على هذه الأوصاف المكرومة خيراً لهذا.

ذكر ماروينا من الآثار في البيوع والصنائع وطريقة الورعين من السلف

روينا عن علقمة رضى الله تعالى عنه عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جلب إلى مصر من أمصار المسلمين فباعه بسعر يومه، كان له عند الله تعالى أجر شهيد، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وأخرون يخرّبون في الأرض يبتغون من فضل الله، وأخرون يقاتلون في سبيل الله». وروينا عن عتبة بن عامر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يدخل الجنة صاحب مكس. وروينا عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقال نادماً في بيع أقاله الله عز وجل يوم القيامة. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير مال المسلم سيكّة مأبورة

أو مَهْرَة مأمورة. قوله سكة مأمورة يعنى النخيل التى قد أبرت فهى طريق كالكسك، وقوله مَهْرَة مأمورة يعنى الخيل النواتج مأمورة أى كثيرة، ومن هذا قوله تعالى «أمرنا مترفيها» أى أكثرناهم، يقال أمر القوم إذا كثروا.

وقال مروان بن الحكم لوهب بن الأسود ما الروية، قال برّ الوالدين، وإصلاح المال. وكتب إبراهيم بن أدهم إلى عهّاد بن كثير إجعل طوافك وسعيك وحجك كنومة غازي في سبيل الله عزّ وجلّ، فكتب عهّاد إلى إبراهيم إجعل حرسك ورياضك وغزوك كنومة كاذّ على عياله من جلّه. وروينا عن إبراهيم بن أدهم قال ما الحاج المعتمر، ولا الفازي المرابط، ولا الصائم والقائم، بأفضل عندنا ممن أغنى نفسه عن الناس.

وروينا عن لقمان قال لابنه يابنى خذ من الدنيا بلاغا، ولا ترفضها كل الرفض فتكون عيالا على الناس. وحدثونا عن شاذان قال سألت الحسن بن هب عن شيء من المكاسب، فقال إن نظرت في هذا حرّم عليك ماء الفرات، ثم قال طلب الحلال أشد من لقاء الزحف. وروينا عن ابن المبارك قال اركب البرّ والبحر واستغن عن الناس. وروينا عن عهّاد بن زيد قال قال أيوب كسب في بعض الشيء أحبّ إلىّ من الحاجة إلى الناس. وأنشدونا عن ابن أبي الدنيا قال أنشدنى عمر بن عبد الله:

نَلَقُّ الصَّغِيرَ مِنْ قُلُلِ الْجِهَالِ * أَخْفَى عَلَيَّ مِنْ مِيزِ الرِّجَالِ

يقول الناسُ كسبٌ فيه عار * فقلت العار في ذلك السؤال

وركب إبراهيم بن أدهم البحر فأخذتهم ريحٌ عاصف أشرفوا على الهلكة، فقالوا يا أبا إسحق، أما ترى ما نحن فيه من الشدة، قال وهذه شدة، قالوا فإى شيء الشدة، قال الحاجة إلى الناس. وأنشدنا بعض العلماء لبعض الأدياء:

لَمَوْتِ الْفَتَى خَيْرٌ مِنَ الْبُخْلِ لِلْفَتَى * وَلِلْبُخْلِ خَيْرٌ مِنْ سَوَالِ الْبُخْلِ

فلا تجملنّ شيئا لوجهك قيمة * ولا تطلق مخلوقا بوجه دليل

ولا تسألنّ من كان يسأل مرة * فللفقر خيرٌ من سؤال سؤل

وأنشدنا بعض الأشياخ:

إذا عدت الآلات فالهبل شرها * وشر من الهبل الموايد والمطل

ولا خير في وعد إذا كان كاذبا * ولا خير في قول إذا لم يكن فعل

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى إذا قلت لصاحبك أحسن فاحسن فهو صدقة. وكان إبراهيم بن أدهم ورفقاؤه في المسجد في شهر رمضان، فلما سلم الإمام قام رجل فسأل فلم يعط شيئا، ووضعوا عشاهم فقالوا لإبراهيم يا أبا إسحق ندعوه، قال لا تدعوه، فبات بغير عشاء، فلما كان من الغد جاء رفيق لإبراهيم، فقال له يا أبا إسحق رأيت الذي سأل البارحة وعلى رأسه حزمة حطب، فقال تدرون لم قلت لكم لا تدعوه؟ سبق إلى قلبي أنه لم يسأل قبلها، فكرهت أن أدعوه فيتكل على عشائكم. وقال رجل لإبراهيم كيف أصبحت؟ قال بخير ما لم يتحمل مؤنتى غيرى.

وكان سليمان الخواص يلقط، وكان إبراهيم بن أدهم يؤاجر نفسه، وكان حذيفة يضرب اللين؛ وقال الحسن : الأسواق موائد الله تعالى، فمن أتاها أصاب منها. وعن قتادة قال مكتوب في التوراة أتق توتق، وسل تخط، واطلب تجد، ومكتوب في الإنجيل ابن آدم اصبر تصبر. وعن أبي العالية قال إذا اشتريت شيئا فاشتر أجوده. وحديثنا عن أبي بكر المروزي قال سألت أبا عبد الله (أحمد بن حنبل) عن الذي يعامل بالربا، يؤكل عنده؟ قال لا. وقال أبو الدرداء إن تمام التقوى أن تتقى العبد في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حجابا بينه وبين الحرام. وحديثنا عن أبي بكر المروزي قال سألت أبا عبد الله (يعنى أحمد بن حنبل) عن الرجل يكون معه ثلاثة دراهم، منها درهم حرام لا يعرفه؟ قال لا يأكل منه شيئا حتى يعرفه. وقال سألت أبا عبد الله عن الرجل يكتسب بالأجر فيجلس في المسجد؟ فقال إنما بنى المسجد ليذكر الله تعالى فيه. وكره البيع والشراء فيه. وقلت لأبي عبد الله للرجل يعمل المغازل ويأتي المقابر، فربما أصابه المطر فيدخل في بعض تلك القباب فيعمل فيها؟ قال المقابر إنما هي من الآخرة، وكره ذلك. وسئل عن رجل له أب مراب، يرسله أن يتقاضى له، ترى له أن يفعل؟ قال لا، ولكن يقول لا أذهب حتى تتوب. وسألت أبا عبد الله عن قبلة اليد، فلم ير بها بأسا إن كان على التدين. قال قد قبّل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وسمعت أبا عبد الله ينكر على أبي ثور قوله إذا أجمع الأطباء أن شفاء الرجل في الخمر أنه ليس به بأس، فأنكر إنكاراً شديداً عليه، وقال لقد كرهت أن يدأوى

الدُّبْر بالضم، فكيف بشرُّبه؟ وتكلم بكلام غليظ. ووحَّدت عن شعيب بن حرب، قال لأن أرى ابني يسرق أو يزني أحبُّ إليَّ من أن يأتي عليه وقت لا يعرف الله تبارك وتعالى فيه. وقيل لأبي أسامة أجيوب وليمة فيها نبيذ؟ قال لا، قلت أخاف الحديث الذي جاء عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ لَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى، فقال من لم يجب اليوم فقد أطاع الله تعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال هرون بن معروف جاعني فتى فقال إنَّ أبي حلف على بالطلاق أن أشرب نواء مع مُسْكِرٍ، فذهبت به إلى أبي عبد الله فلم يرخص له، وقال قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ مَسْكِرٍ حَرَامٌ وَكُلُّ مَسْكِرٍ خَمْرٌ وَقَالَ الرَّوْزِيُّ سَأَلَتْ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الرَّجُلِ يُجَمِّعُ، فَقَالَ أَمَا أَرْضُ الْبُيُوتِ فَتُوقِيهِمْ مِنَ التَّرَابِ، وَكَرِهَ تَجْصِيسَ الْبُيُوتِ. وَنَكَرْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مَسْجِدًا قَدْ بُنِيَ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ مَالًا كَثِيرًا، فَاسْتَرْجَعُ وَأَنْكَرَ مَا قَلْتُ، وَقَالَ قَدْ سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكْحَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ لَا عَرِيشَ كَعَرِيشِ مُوسَى، وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ مِنَ الْكِحْلِ يُطْلَى، فَلَمْ يَرِخْصِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَمَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا شَرْطَيْنِ فِي بَيْعٍ؟ قَالَ قَوْلُ الرَّجُلِ أَيْبَعُكَ أُمَّتِي هَذِهِ عَلَى أَنْكَ إِذَا بَعْتَهَا فَأَنَا أَحَقُّ بِهَا. وَسُئِلَ عَنْ رِيحٍ مَالِمٍ يُمْضِنُ، قَالَ الرَّجُلُ يَبِيعُ الطَّعَامَ قَبْلَ أَنْ يَقْبِضَهُ. وَقِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ فِي الرَّجُلِ يَشْتَرِي الْعَامَ صَبْرَةً، تَرَى لَهُ أَنْ يَبِيعَهُ قَبْلَ أَنْ يَكِيلَهُ، فَقَالَ لَا. وَقَلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الرَّجُلُ يَكُونُ لَهُ الْقَرَابَةُ سَكَرَانَ- يُجْفَى؟ قَالَ أَى شَيْءٍ بَقِيَ إِذَا سَكَرَ. نَعَمْ يُجْفَى أَوْ يُجَانَبُ. وَسَأَلْتَهُ عَنِ الْمُكْرَهَةِ يَرَادُ عَلَى شَرْبِ الْخَمْرِ؟ فَقَالَ يُرَوَى عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَا يَفْعَلُ حَتَّى يُنَالَ بِعَذَابٍ. وَسَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنِ رَجُلٍ لَبَّى بِالْحَجِّ وَلَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، قَالَ لَا يَجُوزُ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ أَصْحَابَ الدَّيْنِ. وَسَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنِ رَجُلٍ لَهُ أُمٌّ ضَرِيرَةٌ وَلَهُ مَالٌ- يَحْجُ عَنْهَا؟ فَقَالَ يَحْجُ عَنْهَا إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى الرُّكُوبِ. وَقَالَ يَعْجَنِي أَنْ لَا يَحْجُ إِلَّا عَنِ قَرَابَةٍ. وَسُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْمَرْأَةِ إِذَا كَانَتْ مُوسِرَةً وَزَوْجُهَا غَائِبٌ- هَلْ تَحْجُ؟ قَالَ تَكْتُبُ إِلَيْهِ، فَإِنْ أُذِنَ، وَإِلَّا خَرَجَتْ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ، قِيلَ فَإِنْ كَانَ شَاهِدًا يَمْنَعُهَا، تَخْرُجُ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ مَعَ مَحْرَمِهَا؟ قَالَ نَعَمْ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَمْنَعُهَا. قَالَ وَلَا تَخْرُجُ مَعَ غَيْرِهِ، فَإِنْ كَانَ أَخُوهَا مِنَ الرِّضَاعَةِ خَرَجَتْ. وَقِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الرَّجُلُ يَسْتَأْجِرُ الدَّارَ وَالْحَانُوتَ فَيُؤَاجِرُهُ بِأَكْثَرِ مِمَّا اسْتَأْجَرَهُ؟ قَالَ فِيهَا اخْتِلَافٌ وَلَمْ يَجِبْ. وَقِيلَ لَهُ رَجُلٌ لَهُ شَجَرٌ فِي أَرْضِهِ وَأَغْصَانُهَا فِي أَرْضِ غَيْرِهِ؟ قَالَ يَقْطَعُ أَغْصَانَهَا. قِيلَ لَهُ فَإِنْ صَالَحَهُ عَلَى أَنْ تَكُونَ الْغَلَّةَ بَيْنَهُمْ؟ قَالَ لَا أَدْرِي. وَقَلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ إِنْ رَجُلًا قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَةٌ يَسْكُنُ

إليها، وخبرَ ياكله، فهو من المتنعمين؟ قال صدق، ونَكَرَ المطاعم ففضّل عمل اليدين. وقلت لأبي عهد الله إذا كان لى جار أعلم أنه يجوع؟ قال تواسيه. قلت فإذا كان قوتى رغيفين؟ وقال تطعمه شيئاً، الذى جاء فى الحديث إنما هو فى الجار. وقلت لأبي عهد الله إذا كان للرجل قميصان أو جبتان، تجبُ عليه المواساة؟ قال إذا كان يحتاج إليه فى هذا البرد. وقلت الأغنياء تجب عليهم المواساة؟ فقال إذا كان قوم يضعون شيئاً على شيء كيف لا يجب عليهم؟ وسألت أبا عهد الله عن حلق القفا، فقال هو من فعال المجوس. قال ودُعِيَ حذيفة إلى شيء فرأى شيئاً من زى الأعاجم فخرج، وقال من تشبّه بقوم فهو منهم. وكان أبو عهد الله لا يخلق قفاه إلا فى وقت الحجامة. وقلت لأبي عهد الله فما ترى فى تحذيف الوجه، قال أما الوجه فالمقاريض تاتى عليه، وكرهه أن يؤخذ الشعر بالمنقاش من الوجه، وقال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتنمصات. وسألت أبا عهد الله عن المرأة تصل شعرها بقرامل، فكره ذلك. وسمعت امرأة تقول جاءت امرأة من هؤلاء الذين يمشطون إلى أبى عهد الله، فقالت إنى أصل رأس المرأة بقرامل وأمشطها، فترى أن أحج مما كسبت؟ قال لا، وكرهه كسبه لنهى النبى صلى الله عليه وسلم، وقال يكون من مال أطيب منه. وقلت لأبي عهد الله فالمرأة الكبيرة تصل رأسها بقرامل؟ فلم يرخص لها، وقال إن كان صوفاً أبيض، وتبسم. وعن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم زجر أن تصل المرأة برأسها شيئاً. وقال أبو بكر المروزي سألت أبا عهد الله عن حلق الرأس فكرهه، وقلت تكرهه؟ قال أشد الكراهية. واحتج أبو عهد الله بحديث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال لرجل لو وجدتك مخلوقاً لضربت الذى فيه عيناك. وسألت أبا عهد الله عن الحقنة، فقال إذا اضطر إليها فلا بأس. وسألت أبا عهد الله عن مصحف قد بلى، ماترى فى دهنه؟ قال يدفن. وقلت الرجل تدعوه أمه وهو فى الصلاة؟ قال قد روى عن ابن المنكدر أنه قال إذا كان فى التطوع فليجلبها وقلت لأبي عهد الله- رجل سقطت منه ورقة فيها أحاديث وفوائد، فأخذتها أن أنسخها وأسمعها، قال لا، إلا أن يأذن صاحبها. وسألت أبا عهد الله عن شيء من أمر الورع، فأطرق رأسه إلى الأرض وسكت. وكان ربما تغيّر وجهه يقول فى بعض ما أسأله أستغفر الله. قلت فأتى شيء تقول يا أبا عهد الله؟ قال أحب أن تعفينى. قلت فإذا أعفيتك فمن أسأل؟ لقد أصبح الأدلاء متحيرين. قال هذا أمر شديد. وسمعتة يقول أنا منذ أكثر من سبعين سنة فى فقد. وقال ماقلّ من الدنيا كان أقلّ للحساب. قلت له إن رجلاً قال إن أحمد بن حنبل ويشر بن الحارث

ليس هما عندى زهادا. أحمد له خبز يأكله، ويشتر له دراهم تجيته من خراسان، فتبسم أبو عبد الله ثم قال من الزهاد أنا. ونكر قوم من المترفين، فقال الدنو منهم فتنة، والجلوس معهم فتنة. وروينا عن سعيد بن خيثم عن محمد بن خالد، قال مرّ إبراهيم النخعي على امرأة يقال لها أم بكر من مراد وهي تغزل، فقال يا أم بكر، أما آن لك أن تتركينه، فقالت يا أبا عمران كيف أتركه وقد سمعت عليّ بن أبي طالب رضی الله تعالى عنه يقول إنه من أطيب الكسب.

الفصل السابع والأربعون

فيه كتاب تفصيل الحلال والحرام وما بينهما من الشبهات، وفضل الحلال وذم الشبهة، وذكر تمثيل الحلال والحرام، وتمثيل ذلك بصور الألوان، وتعريف ذلك للعقول

روينا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه أحد إلا أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره. يعنى والله أعلم أنه يدخل عليه وإن لم يعمل به، من غير قصد له ولا اكتساب، كما يدخل الغبار فى المشام للمجتاز، لفشو الربا وانتشار مداخله مما لا يمكن التحرز منه. وفى الخبر درهم من ربا أعظم عند الله عز وجل من ثلاثين زينة فى الإسلام. وما تواعد الله عز وجل ولا تهدد فى معصية مثل ما تواعد فى أكل الربا، فإنه عز وجل عظم شأنه بوصفين عظيمين إعظاماً له وترهيباً منه، فذكر فى أوله المحاربة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وفى آخره الخلود فى النار، ينتظم ذلك فى قوله «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين»، ثم اشترط للإيمان ترك الربا بقوله «إن»، وهى للشرط والجزاء، ثم قال «فإن لم تفعلوا فآلنوا بحرب من الله ورسوله»، ثم أوجب التوبة منه بعد إعلامه الظلم منه فقال «وإن تبتم فلکم رؤس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون»، ثم نصح على تحريمه فى قوله «وأحلّ الله البيع وحرم الربا»، ثم تواعد بالخلود بعد ذلك كله فقال «ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»، وهذا من شديد الخطاب وعظيم العذاب.

روى عن ابن مسعود رضی الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، فسوى بينه وبين العلم فى الفرض فأوجب الطلب لهما، فمثل فرض طلب